﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾ [هود: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان العلاقة بين الوعيد بالعذاب وأثر الجحود والعصيان والعناد

لمّا ذكر ما حلَّ بهم من غلظة العذاب، وتمَّت قصَّتهم على الوجه البديع والأسلوب البليغ؛ أتبعه عاطفًا على ذلك[1]، تنويهًا بسبب ما نزل بهم من البلاء، فقال: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، أي: قد أحللنا بهم نقمتنا؛ لأنَّهم جحدوا بآيات ربِّهم وحججه، وعصوا رسله[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَحَدُواْ﴾: أصلُ (جحد): يَدُلُّ على قِلَّةِ الخَيْرِ، يقال: عامٌ جَحِدٌ، أي: قَليلُ المَطَرِ، ورجل جَحِد: فقيرٌ قَليلُ الخَيْر[3]، ويُقال: جَحِد عَيْشُهم جَحَدًا؛ إذا ضاقَ واشتدَّ، فالجَحْدُ منْ كُلِّ شَيءٍ القِلَّةُ، ومنْ هذا البابِ الجُحودُ، وهو ضِدُّ الإقْرارِ كالإنكار والمعرفة[4]، ولا يَكونُ إلّا مع عِلْمِ الجاحِدِ به أنَّهُ صَحيحٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14][5]، والمرادُ بالجَحْدِ في الآية: الإنكارُ الشَّديدُ، مثل إنكارِ الواقِعاتِ والمُشاهَداتِ[6].

2) ﴿وَعَصَوۡاْ﴾: أصلُ (عصو): يَدُلُّ على الفُرقَةِ، ومنه العِصيانُ: الخُروجُ عن الطّاعَةِ، يُقال: عَصاهُ، يَعصيهِ، مَعْصيَة وعِصْيانًا؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.
(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 12/51.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/105.

إذا خَرَجَ من طاعَتِهِ، فهو عاصٍ وعَصِيٌّ، والجَمْعُ عصاةٌ وعاصونَ، والعاصي: الفَصيلُ؛ إذا عَصَى أُمَّهُ في اتِّباعِها[1]، ويأْتي بِمعنى المُخالَفَةِ، فيُقال: عَصَى أميرَهُ: إذا خالَفَ أمْرَهُ، وضِدُّه: الطّاعَةُ والإجابَةُ، ومن معانيه: الشَّدُّ والجَمْعُ، يُقال: عَصَوْتُ الجُرْحَ: إذا شددته، وهو على خلاف الباب، ومِن معاني العِصيانِ أيضًا: الإثْمُ، والتَّمَرُّدُ[2]. والمقصود بالعصيان في الآية: الخُروجُ عن الطّاعَةِ بِتَرْكِ أمْرٍ، أو فِعْلِ نَهْيٍ، من الأقْوالِ والأعْمالِ الظّاهِرَةِ أو الباطِنَةِ.

3) ﴿جَبَّارٍ﴾: أصلُ (جبر): يدلُّ على جِنْسٍ منَ العَظَمَةِ والعُلوِّ والاستِقامَةِ، فالجَبّارُ: الَّذي طالَ، وفاتَ اليَدَ، يقال: فَرَسٌ جَبّارٌ، ونَخْلَةٌ جَبّارَةٌ[3]، والجَبْرُ: هو أن تُجبر إنسانًا على ما لا يُريد، وتُكرهه جَبَريَّةً على كذا[4]، والجَبّارُ: اللّه ﷻ، القاهرُ خلْقَهُ على ما أرادَ[5]، والجَبّارُ: العاتي على رَبِّه، القتّالُ لرَعيَّته، والجَبّارُ من النّاس: العظيم في نفسه الَّذي لا يقبلُ موعِظة أحدٍ[6]، ورجلٌ جبّار؛ إذا كانَ طَويلًا عَظيمًا قويًّا، تشبيهًا بالجبّار من النَّخيل، وذو كِبْرٍ لا يَقْبَلُ مَوْعِظَة[7]، والمراد بالجَبّار في الآية: المُتَعاظِمُ الشَّديدُ التَّكَبُّرِ.

4) ﴿عَنِيدٍ﴾: أصلُ (عند): يَدُلُّ على مُجاوزَةٍ وتَرْكِ طَريقِ الاستِقامَةِ، قالَ الخليلُ: عَنَدَ الرَّجُلُ، وهو عانِدٌ، يَعْنُدُ عُنودًا؛ إذا عَتا، وطَغَى، وجاوزَ قَدْرَهُ[8]. يُقالُ: عَنَدَ فُلانٌ عَنِ الأمْرِ؛ إذا حادَ عنه، ورَجُلٌ عَنودٌ؛ إذا كانَ وحْدَهُ لا يُخالِطُ النّاسَ[9]، ومنهُ العَنيدُ، الجائرُ عَنِ القَصْدِ الباغي الَّذي يَرُدُّ الحَقَّ مَعَ العِلْمِ بِهِ، وتَعانَدَ الخَصْمانِ: تَجادَلا[10]. والمرادُ بالعنيد في الآية: القَويُّ الجائر، أي: المُكابر والمُدافع للحَقِّ، وهو يَعْلَمُ أنَّهُ مُبْطِلٌ.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصو - عصوى).
(2) ابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبر).
(4) الخليل، العين: (جبر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(6) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جبر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عند).
(9) الخليل، العين: (عند).
(10) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (عند).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاعتبار بقوم عاد، وآفاتهم من الجحود والعِصيان والانسياق لكلّ جبّار عنيد

أشارَ اللّه تعالى إلى العِبرة من قبيلة عاد التي كانت أقوى قبائل العرب في زمانها، فقال: وتلك عادٌ - الذين أوقعَ اللّه بهم ما أوقعَ - كذَّبوا بالمُعجزاتِ التي أيَّد اللّه بها الرُّسُلَ، وأنكَروا ما أنزل اللّه عليهم منَ الحُجَجِ والبراهينِ، وعَصَوا رُسُلَ اللّه بعصيانِهم لرَسولِهم هودٍ عليه وعليهم السَّلامُ، واتَّبَعوا كلَّ مُتكَبِّرٍ من كُبَرائِهم ورؤسائِهم، متسَلِّطٍ على الخلقِ، طاغيةٍ معاندٍ، لا يقبَلُ الحَقَّ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَن عصى رسولًا واحدًا لزمَه عصيانُ جميعهم؛ فإنَّهم متَّفقون على الإيمان باللّه، وعلى توحيده، وترشدُ إلى التنديد بالكِبْر والعناد؛ إذ هما من شر الصِّفات الخُلقية في الإنسان، وأنَّ اتِّباعَ الطُّغاةِ والظلم والكفر والفساد لا يقودُ إلّا إلى الدَّمار والخَسار[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بـ (الواو) في ﴿وَتِلْكَ﴾:

استئناف الخطاب للإشارة إلى العظة من قصّة قوم عاد

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، استئنافيَّةٌ مفتتحة بالواو الاستئنافيَّة[3]، فلمّا ذكر قصَّة عاد؛ استأنف بخطاب النَّبيِّ ﷺ بالإشارة إلى قبورهم وآثارهم الباقية للنَّظر والاعتبار[4]، وليس إيراد القصص في القرآن إلّا للعظة والاعتبار.

سرُّ الإشارة بـ اللَّفظ ﴿وَتِلْكَ﴾:

الإشارة إلى عادٍ المُهْلَكَةِ؛ للاعتبار بمآلها وسوء عقباها

في قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ استعمل النَّظم الجليل في هذه الآية الكريمة اسمَ الإشارة الدّالَّ على المفرد المؤنَّث

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/451، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/54، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 384.

(2) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/400، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/556.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/298.

(4) النّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 4/33.

﴿وَتِلْكَ﴾؛ للدَّلالة على القبيلة أو القصَّة[1]. وفائدة الإشارة هنا لبيان أنَّ قصَّتهم ما زالت حاضرةً في الذِّهن، بسبب ما أجري عليه من الحديث، وشيّق التَّصوير، وماتع العبارة، حتّى صار كأنَّه حاضر في الحسِّ والمشاهدة، وهو من التَّصوير الفنِّي في القرآن الكريم، وقد أجاد الطَّيبيُّ؛ إذ قال: "وقلت: كأنَّه آذنَ بتصوير تلك القبيلة في الذِّهن، ثمَّ أشار إليها، وجعلها خبرًا للمبتدأ لمزيد الإبهام، فيحسن التَّفسير بقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كلَّ الحسنِ لمزيد الإجمال والتَّفصيل"[2]. وقد جاءت الإشارة إلى عاد، لقوَّتها وطاغوتها، وما لاقت بسبب تمرُّدها، لِما في ذلك من عبرة[3].

وجهُ إيثار اسم الإشارة (تِلْكَ):

قوله جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، آثر النَّظم الجليل فيها التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد، تحقيرًا لهم، وتنزيلًا لهم منزلة البعيد، لعدمهم، وإذا أريد باسم الإشارة قبورهم؛ فهي للبعيد المحسوس[4]، وبالإشارة "فصل بين عاد (المكان)، وعاد (المكين)، وهم قوم عاد؛ لذلك قال سبحانه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، فهم قد ذهبوا، وبقيت آثارهم"[5].

إبعادُ الله تعالى لقوم ما، تصريحٌ بتحقيرهم وسوء مصيرهم

موقع جملة ﴿جَحَدُواْ﴾ في الآية:

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، مستأنفة سيقت للإخبار عنهم بذلك، وليسَتْ حالًا ممّا قبلها[6]، وهي بيانٌ وتفسيرٌ للجملة الاسميَّة ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ﴾، "كأنَّه آذنَ بتصوير تلك

بعد الإجمال بالإشارة، بيان تفصيل ملمح الذَّمِّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/115.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3721.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/110.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6519.
(6) السّمين الحلبي، الدّرُّ المصون: 6/345.

القبيلة في الذِّهن، ثمَّ أشار إليها، وجعلها خبرًا للمبتدأ، لمزيد الإبهام، فيحسن التَّفسير بقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، كلَّ الحُسنِ لمزيد الإجمال والتَّفصيل"[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ الجحود:

جحود الآيات كفرٌ بها، بعد العلم بيقينها وصدقها

دلَّ التَّعبير بالفعل ﴿جَحَدُواْ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ على أنَّهم كفروا بالآيات مع المعرفة بإيقان؛ لأنَّ الجُحود يدلُّ على نفي ما في القلب إثباته[2]، أي: "كفروا بها بعدما استيقنوها"[3]، وهذا أبلغُ من مجرَّد الكفر، فهو كفر عن دراية وعلم بالحقِّ، ثمَّ عدول عنه إلى الباطل، فيتضمَّن ذلك الإصرار والكفر عن علم، فلا إعذارَ لهم ولا إمهال.

بلاغة التَّعبير بالماضي ﴿جَحَدُواْ﴾:

جحود قوم عاد تحقَّق واقعًا، ولا يكون جحود إلّا مع يقين وجود

عبَّر بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ للدَّلالة على أنَّ جحودهم تلك الآيات أمرٌ مقطوع به، وأنَّه قد تأكَّد حدوثه، فهو حدثٌ انقضى، فاستحقُّوا ما وقع جزاءً عليه، والجحود كفر ونكران، بعد معرفة واستيقان، ولذلك كان الإخبار عن واقع معيش، مرَّت به هاته الأقوام، في تلك الأحداث الحوالك التي بدأت دعوة للهداية والانسلاك، وانتهت بالكفر والمنابذة والهلاك، وذلك حكم الله على كلِّ من كفر، وقانونه على كلِّ منْ طغى وبطر.

دلالة التَّعبير بالجمع ﴿جَحَدُواْ﴾:

الإجماع على الكفر دليل على انطماس البصيرة

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، عبَّر النَّظم الكريم بالفعل الماضي المسند إلى واو الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ كفرَهم كان جماعيًّا، ولذلك كانت العقوبة جماعيَّة، وعصيانهم الجماعيُّ للرَّسول المبعوث إليهم، يصعِّب من مهمَّة الرَّسول، ويحجب

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/115.
(2) الرّاغب، المفردات: (جحد).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

عنهم رؤية الحقِّ، واستبانة الهدى، وهو أمر شهدته المجتمعات الكافرة في جميع العصور، وكان الكفر الجماعيُّ سببًا في دمار كيانها، وهلاك أهلها.

عِلَّةُ تعدّي الفعل ﴿جَحَدُواْ﴾ بالباء:

الكفر بالآيات مع اليقين بها، مُفْصِحٌ عن استحواذ الكفر عليهم

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾، تعدَّى فيه الفعلُ ﴿جَحَدُواْ﴾ بحرف الجرِّ الباء، مع أنَّه متعدٍّ بنفسه، لتأكيد التَّعدية، فأُنزل (جحد) منزلة الفعل (كفروا)[1]، وقد دأب النَّظم الكريم على استعماله متعدّيًا بالباء كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: 14]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: 51]. ولمّا كان الجحود أبلغَ من النَّفي والكفر؛ لأنَّه الكفر مع اليقين دلَّ ذلك على شدَّة ملابسة الكفر لهم إزاء هذه الآيات، فكان التَّعبير بالباء لذلك.

نكتةُ إضافة الآيات في ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾:

إضافة الآيات للخالق المنعم، إشارة إلى جدارتها بالدّلالة

أضاف النَّظم الجليل لفظ الآياتِ إلى الرَّبِّ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مصدر تلك الآيات، هو اللَّطيف بهم، والمحسن إليهم، وأنَّها منزلة منه، وفيها إشارة إلى أنَّها مراعية لعقولهم ومداركهم، لما في لفظ الرَّبِّ من إلطاف وإحسان، وأنَّها جديرة بأن تكون دالَّة على ما يراد منها، ويدلُّ على تفخيم شأنها وكونها آيات نزلت بعناية اللَّطيف الخبير.

سرُّ الإضافة في ﴿رَبِّهِمْ﴾:

ربوبيَّة الله تعالى، لا ينفكُّ عنها مؤمن ولا كافر

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أضاف فيه النَّظم الكريم، لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير الدّال على قوم هود عليه السلام؛ إذ ربوبيَّته لا تنفكُّ حتّى عن العصاة والكفرة والمناوئين، فإنَّ الله تعالى هو ربُّ النّاس جميعًا ورازقهم والمقيم على شأنهم، من غير

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/110.

نظر إلى معتقدهم رحمة منه وتفضُّلًا، وهو المعنى الوارد في قول إبراهيم عليه السلام لربِّه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: 126]، فكان جواب الله غير مميَّز بين كافر ومؤمن، في عطاء الرُّبوبيَّة، حيث قال تعالى له: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: 126]، "فردَّ الله سبحانه عليه قائلًا: إنَّه سيرزق المؤمنين وغير المؤمنين من النّاس؛ لأنَّه سبحانه لا يخلق خلقًا لا يرزقه؛ ولكنَّه تعالى جعل ذلك الرِّزق لمن كفر، متاعًا قليلًا، مدَّة وجودهم في الدُّنيا"[1].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَعَصَوْا﴾:

الرّاسخون في المعاصي يكون العذاب لهم جزاء وفاقًا

عبَّر النَّظم الجليل عن عصيانهم بالفعل الماضي، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على رسوخِهم في المعاصي، وأنَّهم قد دأبوا على فعل ذلك، وتأكَّد تحقيقهم له، بحيث إنَّه صار حدثًا ماضيًا مقطوعًا به، وأسند العصيان إليهم، معبِّرًا عنهم بـ واسطة (واو الجماعة)، لتسويغ استحقاقهم للعذاب الهون في الدُّنيا والآخرة.

فائدةُ جمعِ لفظ الرُّسل في قوله: ﴿رُسُلَهُۥ﴾:

مَنْ عصى رسولًا واحدًا، فقد عصى الجميع؛ لأنَّ دعوتهم واحدة

أورد النَّظم الكريم لفظ الرُّسل جمعًا، في قوله جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ﴾، مع أنَّه لم يرسِلْ إليهم غيرَ هودٍ عليه السلام، تفظيعًا لكفرِهم وعنادِهم، وبيانًا أنَّ عصيانهم لرسولهم، هو عصيانٌ لجميع الرُّسلِ السّابقين واللّاحقين[2]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: 136]، فهم "وإن كانوا قد عصوا رسولًا واحدًا،

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 133.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

فإنَّ عصيان واحد منهم عصيان للجميع؛ لأنَّه ما كان إلّا لنفي الرِّسالة نفسها، بدعوى أنَّ الرَّسول لا يكون بشرًا"[1]، والمعنى: أنَّهم ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾، أي: عصوا جنسهم، بعصيان رسوله إليهم وإنكار رسالته، فإنَّ عصيان الواحد عصيان للجنس كلِّه؛ إذ هو مبنيٌّ على رفض الرِّسالة نفسها، بادِّعاء أنَّ الرَّسول لا يكون بشرًا "[2].

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿رُسُلَهُۥ﴾:

تكريم الرُّسلِ وتشريفهم لنسبتهم لله تعالى، والتَّشنيع بمكذِّبيهم

جاء لفظ الرُّسل مضافًا إلى الضَّمير العائد لله تعالى، في قوله جل شأنه: ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾، إشارةً إلى أنَّ الرُّسل مرسلين من الله ﷻ، وفي ذلك تكريمٌ لهم وتشريف، وأنَّ الرَّسول مبعوثٌ من الله تعالى ليطاع، لا ليعصى، وطاعة الرَّسول من طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النّساء: 80]، وفي ذلك بيان لشناعة تكذيب هؤلاء الكرام ﷺ، فإنَّ صفتهم بالرِّسالة صادرة من الله تعالى، فيكون إنكارُها إنكارًا لله تعالى، لا للرُّسل خاصَّة.

معنى العطفِ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟﴾:

اتِّباع الطُّغاة والعزوف عن الصّالحين، منهج الضّالّين المعاندين

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، معطوف على قوله تعالى: ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾؛ لبيان أنَّ قوم عادٍ لم يكتفوا بمعصية الله تعالى، وعدم اتِّباع دينه، بل زادوا ذلك بأن اتَّبعوا المعاندين الطُّغاة، والمعنى: عصَوا مَنْ دعاهم إلى الهدى، وأطاعوا من حداهم إلى الرَّدى.

دلالة الماضي ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟﴾:

تحقُّق اتِّباعهم أهلَ التَّجبُّر والعناد، وضلالهم جميعًا

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، عبَّر النَّظم الكريم عن ضلالهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ بالاتِّباع، وجاء ذلك بصيغة الفعل الماضي للدَّلالة على أنَّ اتِّباعهم

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/52.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 12/99.

قد تحقَّق ومضى الزَّمان عليه، تعبيرًا عن اعوجاج مسلكهم، وضلال سبيلهم، وقد أسند إلى واو الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الاتِّباع كان منهجًا لجميعهم، وأنَّهم ضلّوا جماعة، كما ضلّوا فرادى.

بلاغةُ الصُّورة التَّمثيليَّة في الآية:

اتِّباع المضلِّين صورة مماثلة لاتِّباع جاهل بمسالك الطَّريق

دلَّ التَّعبير بالاتِّباع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، على صورة تمثيليَّة، فالاتِّباع هو العمل على وفق ما يملي المتَّبع، وهذا يشابه ما يفعل الهادي لسالك الطَّريق، فالامتثال للأوامر يشبه الاتِّباع للسّائر، فهي صورة تشبيهٍ تمثيليٍّ مكتملة[1].

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾:

دأْبُ الضّالّينَ الكفرة، اتِّباع المفسدين الفجرة

عبَّر النَّظم الكريم بلفظ ﴿كُلِّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، عن شدَّة ضلالهم، فإنَّ ﴿كُلِّ﴾ يدلُّ على العموم على الحقيقة، فيكون دالًّا على الاستغراق، فإنَّهم اتَّبعوا كلَّ جبّار عرفوه، أو يدلُّ على العموم على الأغلب والأكثر، "فإن أريد كلُّ جبّار عنيد من قومهم فالعموم حقيقيٌّ، وإن أريد جنس الجبابرة؛ فـ ﴿كُلِّ﴾ مستعملة في الكثرة"[2]. وأضاف ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿جَبَّارٍ﴾ وليس إلى ﴿أَمۡرَ﴾، فلم يقل: (اتَّبعوا كلَّ أمرِ جبّار عنيد)؛ لأنَّ المراد أنَّهم اتَّبعوا الأوامر التي تصدر من الجبابرة، وتخالف الشَّرع، وليس كلَّ أمر من أوامرهم، فلم يتابعوه في كلِّ أمره[3]، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّهم انتقَوا الضَّلال، واختاروه اختيارًا، وفيه كذلك تأكيدٌ لدأبهم على اتِّباع الضَّلال والنُّفور من الإيمان بإله واحد، تعبيرًا عن فساد طويَّتهم وسوء مقصدهم.

سرُّ الجمع بين الوصفين ﴿جَبَّارٍ﴾ و ﴿عَنِيدٖ﴾:

ظهور طغيان المتَّبعين، إفصاحٌ عن ضلال التّابعين

جمع النَّظم البليغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/106.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/361.

بين صفتي الجبّار والعنيد، والجبّار: قاهرٌ بليغ القهر، يجبر غيره على ما يريد، والعنيد: طاغٍ وباغٍ لا يقبل الحقَّ بوجهٍ، وفائدة الجمع بين الصِّفتين، تأكيدُ كونهم في الغاية من التَّجبُّر والظُّلم والطُّغيان، والغرض من ذلك هو شدَّة الذَّمِّ للَّذين اتَّبعوهم، فهو مبالغة في بيان فساد قلوبهم، فإنَّ المتَّبَعين ظاهرو الطُّغيان والعدوان، مع ذلك اتَّبعوهم، وكان في وسعهم إضمار خلاف ما يأمرونهم به، ولكنَّهم خافوا، فاتّبعوهم لفسادهم، وهذا مستفاد من قول البقاعيِّ رحمه اللّه: "وهذا يدلُّ على أنَّه لا عذر في أصل الدِّين بوجه، فإنَّ الضَّمائر لا يعلمها إلّا اللّه، فيمكن لكلّ أحد مخالفة الجبّار فيه"[1].

نكتةُ ترتيب الجمل المبدوءة بالأفعال:

ترتيب الجمل حسب الوجود الخارجيّ من بديع الاستعمال

رتَّب النَّظمُ الكريم الجمل الفعليَّة الثَّلاث الواردة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، ففيه ثلاث جمل، كلُّ واحدة مبدوءة بفعل مختلف، وهي على التَّوالي: ﴿جَحَدُواْ﴾.. ﴿وَعَصَوۡاْ﴾... ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾، وترتيبها جاء حسب المراحل فبعضها يفضي إلى بعض، ويكمِّل دلالته، ويُفصح عن مرماه، فقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، هو المرحلة الأولى، وهي مرحلة الجحود؛ فلا يقع عصيان، ولا اتِّباع الطُّغاة إلّا بعد تحقيق الجحود والكفر، والثّانية: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾: وهي مرحلة عصيان الرَّسول، والثّالثة: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾: وهي مرحلة تحدّي الدَّعوة واتِّباع غير الرَّسول[2].

دلالة التَّعبير بالمبالغة ﴿عَنِيدٖ﴾:

العناد صفة للتَّعبير عن العتوّ والتَّجبُّر ومجانفة الحقّ

عبَّر النَّظم الجليل في قوله جل شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، بصيغة المبالغة ﴿عَنِيدٖ﴾، التي على وزن (فعيل)، دون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/54 بترقيم الشاملة آليًّا.

اسم الفاعل (معاند)؛ للمبالغة في صفة العناد والعتوِّ، الَّتي يتَّصف بها أولئك الضّالّون من الجبابرة، وهم رؤساؤهم ودعاتهم إلى تكذيب الرُّسل؛ لأنَّهم الذين يجبرون النّاس على الأمور، ويعاندون ربَّهم، ومعنى اتِّباع أمرهم: طاعتهم "[1]، فهو أبلغ من اسم الفاعل (معاند).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(جحد) و(أنكر):

الجحود: ضدُّ الإقرار، والإنكار: ما لَمْ يقبله القلب، ولم يعترف به اللِّسان

الفرق بين الجحود والنُّكر: أنَّ الجحود ضِدُّ الإقْرارِ، ولا يَكونُ إلّا مَعَ عِلْمِ الجاحِدِ بِهِ، أنَّهُ صَحيحٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: 14][2]، فهو نفي ما في القلب إثباته[3]، أمّا الإنكار؛ فهو من: نَكِرَ الشَّيْءَ، وأنْكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ، ولَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسانُهُ[4]. وهو ضِدُّ العِرْفانِ، وأصلُه أن يَرِدَ على القَلْبِ ما لا يتصوَّره، وذلك ضَرْبٌ من الجَهْلِ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: 70]، وقد يُستعمَلُ ذلك فيما يُنْكَرُ باللِّسانِ، وسَبَبُ الإنْكارِ باللِّسانِ هو الإنْكارُ بالقلبِ[5]، لذلك جاء في التَّعبير في الآية بالجحود، تعبيرًا عن أنَّهم قد عرفوا أنَّها حقٌّ، فمعنى أنَّهم جحدوا بها: أنَّهم "كفروا بها بعد ما استيقنوها"[6]، والجحد أخصُّ من الإنكار؛ لأنَّ الجحد إنكار الشَّيءِ الظّاهر، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: 51]، وقد يكون الإنكار مرتبطًا دلاليًّا بالنِّعمة؛ لأنَّها قد تكون خافية، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النّحل: 83]، ويجوز أن

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/54 بترقيم الشاملة آليًّا.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(3) الرّاغب، المفردات: (جحد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(5) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

يكون الجحد هو إنكار الشَّيء مع العلم به، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النّمل: 14]، والجحد يكون مع اليقين، بينما الإنكار يكون مع العلم وغير العلم... وقال المبرِّد: لا يكون الجحود إلّا بما يعلمه الجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33][1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 46.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»